

# الباب الرابع

الجيش والبحرية

obeykandil.com

obeikandi.com

## ديوان الجيش:

يعتبر ديوان الجيش أول ديوان وضع في الإسلام، وذلك على عهد عمر بن الخطاب<sup>(١)</sup>، وفي عهد المماليك غدت مهمة هذا الديوان الإشراف على شئون الإقطاعات، وصار في هذه الناحية من أهم الدواوين الحكومية وأعمها نفعا<sup>(٢)</sup>، حيث تحفظ فيه الأوراق الخاصة بأسماء الجنود وأمرائهم، وكان المتبع على عهد السلطان برقوق أنه إذا مات أحد الجنود أو فصل من الخدمة في الجيش، عرض بديوان الجيش واحد مكانه ويتناول ما كان يتناوله الجندي السابق من ديوان ذلك الأمير<sup>(٣)</sup>.

وعلى ذلك كان لا يتمكن الجندي من تدوين اسمه بديوان الجيش إلا بواسطة أميره وقائده، كذلك لا يستطيع الجندي أن ينتقل من تبعية قائده إلى تبعية قائد آخر إلا بإذن السلطان وبعد صدور مرسوم منه أو من نائب السلطنة<sup>(٤)</sup>. ويتولى رئاسة ديوان الجيش موظف كبير يعرف بناظر الجيش، وتعد وظيفته من الوظائف الديوانية الرفيعة في الدولة التي يعين صاحبها من قبل السلطان، ويختار من خاصته<sup>(٥)</sup>، حيث تقتضى طبيعة وظيفته الدخول على السلطان في مجالسه الخاصة بإدارة شئون الدولة، وذلك ليعرض عليه الأمور المتعلقة بالجيش، كما كان السلطان يتفاهم معه فيما يعرض عليه من هذه الأمور<sup>(٦)</sup>.

(١) القلقشندي: صبح الأعشى جـ ٤ ص ٣١.

(٢) المقرئزي: المواعظ والاعتبار جـ ٢ ص ٢١٥، الخالدي: المقصد الرفيع الورقة ٢٠٥.

Demombynes: La syrie A L'Epoque des Mame louks p.L XXII.

(٣) القلقشندي: صبح الأعشى جـ ٤ ص ٦٢.

(٤) المقرئزي: نفس المصدر والجزء ص ٢١٦.

(٥) القلقشندي: صبح الأعشى جـ ٤ ص ٣٠ - ٣١.

(٦) القلقشندي: نفس المصدر والجزء ص ٤٤.

ولذلك كان ناظر الجيش يلزمه أن يكون عارفا بأمور الجيش وترتيبها، كما يتعين عليه أن يكون ذا معرفة بأصناف الأمراء والجنود، وما يتعلق بإقطاع كل منهم على قدر منزلته ورتبته في الجيش<sup>(١)</sup>.

وتولى نظر هذا الديوان في عهد السلطان برقوق وابنه جماعة من أفاضل المصريين ما بين مسلم وذمي.

فمثلا رأس هذا الديوان في عهد برقوق القاضي شرف الدين محمد بن محمد ابن عبد الله المعروف بابن الدماميني<sup>(٢)</sup>، وكان عارفا بالأمور المتعلقة بالدواوين الحكومية، ولذلك وصفته المصادر المعاصرة له بأنه «كان ذا أدب ورياسة ودراية وسياسة»<sup>(٣)</sup>.

كذلك رأس هذا الديوان زمن السلطان فرج، إبراهيم بن غراب، وهو من النصارى الذين أسلموا<sup>(٤)</sup>.

وثمة جماعة من غير أهل مصر تولوا رئاسة هذا الديوان، فقد عهد السلطان برقوق بالديوان إلى القاضي جمال الدين محمود بن علي القيصرى الرومى المعروف بالعجمى «وكان عالما صادقاً، فصيحاً في العربية والفارسية والتركية»<sup>(٥)</sup>.

وربما جمع بين نظر الجيش وعدة وظائف أخرى لشخص واحد، كما حدث لموفق الدين أبي الفرج الأسلمى ناظر الخاص في عهد برقوق، حيث أسند إليه السلطان برقوق نظارة الجيش مضافاً لما بيده من نظر الخاص ونظر الذخيرة واستيفاء الصحبة<sup>(٦)</sup>.

(١) القلقشندي: نفس المصدر جـ ١١ ص ٨٩، ابن شاهين الظاهري: زبدة كشف الممالك ص ١٠٣.

(٢) ابن الصيرفي: نزهة النفوس جـ ١ ص ٤٤١.

(٣) ابن الصيرفي: المصدر السابق جـ ٢ ص ١٢٩.

(٤) ابن حجر: إنباء الفجر جـ ٢ ص ٣٣٠.

(٥) ابن الصيرفي: نزهة النفوس جـ ١ ص ٤٥٠.

(٦) المقرئى: السلوك جـ ٣ القسم الثانى ص ٥١٦.

كذلك أسند السلطان فرج بن برقوق نظارة الجيش إلى القاضى شرف الدين ابن الدمامين مضافا لما بيده من نظر الخاص، ونظر ديوان المفرد، ونظر الكسوة، ووكالة بيت المال<sup>(١)</sup>.

وفي مثل هذه الحالات كانت ألقاب ناظر الجيش تزداد بحيث تتناسب مع مجموعة الوظائف الأخرى التي أسندت إليه<sup>(٢)</sup>.

ولناظر الجيش أتباع من كبار الموظفين، يولون عن السلطان، أولهم صاحب ديوان الجيش، ويلى ناظر الجيش في الرتبة، بل وينوب عنه في الإشراف على شئون ديوان الجيش إذا غاب<sup>(٣)</sup>، وكثيرا ما كان يرقى ناظر الجيش في عهد برقوق من بين من يشغلون وظيفة صاحب ديوان الجيش<sup>(٤)</sup>.

أما مستوفى الجيش فكان يقوم بتحديد مرتبات الجنود وتدوينها في كشوف خاصة، ثم يقوم بصرف هذه المرتبات موظف آخر عرف باسم مستوفى الرزق<sup>(٥)</sup>.

رتب رجال الجيش في عهد برقوق:

وتكون جيش برقوق كسائر الجيوش المملوكية من قادة وجند، فكان قائد الجيش يسمى أتابك العساكر، وهو الذى يتولى قيادة الجيش<sup>(٦)</sup>.  
وبالإضافة إلى قائد الجيش، كان هناك قادة آخرون وهم بقية الأمراء، وتفاوتت درجات هؤلاء الأمراء على حسب مجموعات الجند الذين كانوا يتبعون أميرهم، كما اختلفت أعدادهم كذلك زيادة أو نقصا على حسب رتبة أميرهم في الجيش.

(١) ابن الصوري: نزهة النفوس جـ ٢ ص ٤٣.

(٢) العمرى: التعريف بالمصطلح الشريف ص ٧٥.

(٣) القلقشندي: صبح الأعشى جـ ٤ ص ٣١، على إبراهيم: تاريخ الممالك البحرية ص ٢٦٥.

(٤) المقرئى: السلوك جـ ٣ القسم الثاني ص ٧٠٦.

(٥) على إبراهيم: المصدر السابق ص ٢٦٥، والرزق: جمعه أرزاق، وهى المرتبات سواء كانت يومية

أو شهرية، سعيد عاشور: العصر المماليكى ص ٤١٩.

(٦) القلقشندي: صبح الأعشى جـ ٤ ص ١٨.

فأمير مائة من له إمرة مائة فارس، يشترتهم من مال إقطاعه الذى منحه إياه السلطان، وله كذلك «تقدمة ألف» أى قيادة ألف جندى من أجناد الحلقة والماليك السلطانية وقت الحرب<sup>(١)</sup>.

وتعد طبقة «أمراء المثين مقدمى الألف» أعلى رتب الجيش المملوكى<sup>(٢)</sup>. وقد جرت التقاليد فى الجيش المملوكى أن يكون عدد الأمراء مقدمى الألف بمصر ٢٤ أميراً، وهذا ما استقر عليه النظام الحربى للدولة منذ أن قام الناصر محمد ابن قلاوون بتنظيم الإقطاعات الخاصة بالجيش، واستمر ذلك النظام معمولاً به إلى آخر دولة المماليك الأولى سنة ٧٨٤هـ / ١٣٨٢م «ولما استجد فى دولة برقوق الديوان المفرد لخاص السلطان وأفرد له عدة كثيرة من المماليك السلطانية والمستخدمين، نقصت عدة المقدمين عما كانت عليه وصارت دائرة بين الثمانية عشر والعشرين مقدماً بما فى ذلك نائب الإسكندرية ونائى الوجهين: القبلى والبحرى<sup>(٣)</sup>.

ويتلو إمرة مائة فى السلم العسكرى على عهد برقوق، إمرة طبلخانة، وهى إمرة أربعين، بمعنى أن الإقطاع الذى يمنحه السلطان لصاحب هذه الرتبة فى الجيش، يكفى لشراء أربعين مملوكاً<sup>(٤)</sup>.

أما إمرة عشرة فهى دون إمرة الطبلخانة فى مدرج الرتب العسكرية فى الجيش المملوكى، وتقضى هذه الإمرة على صاحبها بإقامة عشرة ممالك<sup>(٥)</sup>، ويلاحظ أن أصحاب هذه الرتبة لا ضابط لعدد أمرائها، بل تتفاوت بالزيادة والنقص على حسب الأحوال<sup>(٦)</sup>.

(١) القلقشندى: «صبح الأعشى ج ١ ص ١٤، طرخان: مصر فى عصر المماليك الجراكسة ص ٢٢٩.

(٢) القلقشندى: نفس المصدر والجزء والصفحة.

(٣) القلقشندى: نفس المصدر والجزء والصفحة.

(٤) القلقشندى: نفس المصدر والجزء ص ١٥. طرخان: النظم الإقطاعية ص ١٦٠.

(٥) طرخان: النظم الإقطاعية ص ١٦١.

(٦) القلقشندى: صبح الأعشى ج ٤ ص ١٥.

وإمرة خمسة هي الرتبة الأخيرة في الجيش المملوكي، ويكون بخدمة كل من أمراء الخمسوات خمسة من المماليك<sup>(١)</sup>.

وكان نظام الترقية في الجيش على عهد السلطان برقوق يخضع للتدرج الطبيعي من رتبة إلى ما فوقها، على أن المملوك في بداية حياته الحربية كان لا بد أن ينضم أولاً إلى أفراد الجيش السلطاني المقيمين بالقلعة، وكانت التقاليد المتبعة وتقتضى أن لا تجلب التجار إلا المماليك صغار السن فإذا شب الواحد من المماليك علمه الفقيه قدرًا من الفقه وأقرأه فيه مدة، فإذا صار المملوك إلى سن البلوغ درب على أعمال الفروسية وركوب الخيل<sup>(٢)</sup>، فكان يتسلم كل طائفة معلم خاص يدرهم على أنواع الحرب من رمى السهام ولعب الرمح ونحو ذلك حتى يبلغ بهم الغاية في معرفة ما يحتاجون إليه، ومن ثم ينقل بعد ذلك إلى الخدمة في الجيش فيتدرج في الإمرة ويتنقل في أطوارها رتبة بعد رتبة<sup>(٣)</sup>.

على أن تتبع حالات الترقية لأغلب الجنود في عهد السلطان برقوق أثبتت أن الذين وصلوا إلى أعلى الرتب في السلم العسكري كانوا من خواص السلطان الذين يثق فيهم ويأنس لهم، وقد عرف هؤلاء المماليك في المصطلح المملوكي باسم «الخاصكية» وهم جماعة من حاشية السلطان يتمتعون بحكم منزلتهم منه بمكانة كبيرة، فكانوا يدخلون على السلطان في أوقات فراغه وفي خلواته بغير إذن، وخصص لهم السلاطين المرتبات الجزيلة، كما كانوا يمتازون عن غيرهم من بقية الوظائف المملوكية الأخرى بحسن المظهر وأناقاة الركوب والملبس<sup>(٤)</sup> وحسبنا أن نلمح كثيرا من هذه الجوانب في العبارات التي يوردها المؤرخون أثناء الترجمة لهؤلاء.

(١) القلقشندي: نفس المصدر والجزء والصفحة.

(٢) البغدادي: عيون أخبار الأعيان ورقة ٤٨١.

(٣) المقرئزي: المواعظ والاعتبار جـ ٢ ص ٢١٣.

(٤) سعيد عاشور: العصر المملوكي ص ٤١٠ - ٤١١.

فعلى سبيل المثال كان الأمير أقبغا الطولونى من الخواص عند السلطان برقوق حتى رقيه إلى أمير عشرة ثم إلى إمرة طبلخانة وجعله «رأس نوبة»<sup>(١)</sup>، ثم رقيه إلى أمير مائة وهى أعلى الرتب العسكرية فى الجيش المملوكى<sup>(٢)</sup>. كذلك كان الأمير أرغون شاه ألبند مرى، حظى عند السلطان برقوق عندما كان مملوكا صغيرا فجعله السلطان ساقيا خاصا، ثم رقيه إلى أمير عشرة فأمر طبلخانة ثم آل أمره إلى أن أنعم عليه بإمارة مائة وتقدمة ألف، وصار أمير مجلس<sup>(٣)</sup> السلطان ولم تكن سنه تتجاوز الثلاثين عاما حين رقى إلى أعلى الرتب العسكرية وقتل بالجيش المملوكى<sup>(٤)</sup>.

### فروق الجنند:

وكان الجيش المماليكى على عهد برقوق يتألف من ثلاث طوائف أساسية، هى المماليك السلطانية، وأجناد الحلقة، ومماليك الأمراء<sup>(٥)</sup>، وجميع أولئك من الأرقاء الذين جلبوا من أسواق الرقيق بالقوقاز وآسيا الصغرى وشواطئ البحر الأسود<sup>(٦)</sup>، فكانوا خليطا من الأتراك والشراكسة والروم والروس والأكراد<sup>(٧)</sup>. وتعتبر الطائفة الأولى وهم المماليك السلطانية «أعظم الأجناد شأنا وأرفعهم قدرا وأشدهم قربا وأوفرهم إقطاعا، ومنهم تؤمر الأمراء رتبة بعد رتبة»<sup>(٨)</sup>.

(١) رأس نوبة: وظيفة يقوم صاحبها بالحكم على مماليك السلطان والأخذ على أيديهم، القلقشندى: صبح الأعشى جـ ٤ ص ١٨.  
 (٢) ابن الصيرفى: نزهة النفوس جـ ٢ ص ٦٤.  
 (٣) أمير مجلس من الوظائف الكبرى فى الدولة المملوكية، وكان هذا اللقب يطلق على من يتولى أمر مجلس السلطان فى الترتيب وغيره، القلقشندى: صبح الأعشى جـ ٥ ص ٤٥٥.  
 (٤) ابن الصيرفى: نزهة النفوس جـ ٢ ص ٦٣.  
 (٥)

(٦) Demomyes: Op. Cit. p. XXXII

Poljak: Feudalism in Egypt P.2.

Demomyes: Op. Cit. p. XXXII.

(٦)

(٧) المقرئى: المواعظ والاعتبار جـ ٢ ص ٢١٥.

Heyd: Histoire du commerce du levant au moyen-Age Tome II. p. 560.

(٨) القلقشندى: صبح الأعشى جـ ٤ ص ١٥.

وفي أيام السلطان برقوق غلب على طائفة المماليك السلطانية العنصر الجركسي، حتى بلغت عدتهم في مدة حكمه ما يقرب من خمسة آلاف مملوك<sup>(١)</sup>.  
وأما الطائفة الثانية وهم أجناد الحلقة، فهذه تتكون من ممالك السلاطين والأمراء السابقين وأولادهم، وهم بهذه الصفة جيش الدولة الذي لا يتغير بتغير السلطان، ويتولى الإشراف عليهم أمراء المثمين والنقباء ومقدمو الحلقة، فكان لكل ألف من هؤلاء مشرف من أمراء المثمين، ولكل مائة منهم نقيب، ولكل أربعين مقدم حلقة<sup>(٢)</sup>.

والطائفة الثالثة هي ممالك الأمراء، فقد كان لكل أمير جيش صغير يتبعه، وهؤلاء يشتريهم الأمير بالقدر الذي يسمح به إقطاعه ورتبته، ومن مجموع هؤلاء تتكون الوحدات الحربية التي يصحبها السلطان في حروبه وتحت إشراف أمرائهم<sup>(٣)</sup>.

وقد استطاع السلطان برقوق أن ينهض بهذا الجيش الذي انتابته عوامل الضعف وأواخر دولة المماليك البحرية على عهد أولاد الناصر محمد بن قلاوون وأحفاده، فأخذ يستكثر من شراء المماليك ليكونوا عدته وقت الحرب، وليدراً بهم الأخطار الخارجية التي أحدثت بالدولة في بدايتها، حتى وصل جميع من اشتراه من المماليك من سائر الأصناف في أيام حكمه ما يقرب من عشرين ألف مملوك<sup>(٤)</sup>.

وبلغ هذا الجيش من القوة في أيام السلطان برقوق إلى درجة أفزعت تيمور لنك الذي اكتسح عددا كبيرا من بلاد الشرق في هذه الفترة، ولكنه لم يجرؤ على التقدم غربا نحو بلاد السلطان برقوق إلا بعد أن وصلته أنباء وفاته، وما تبع ذلك

(١) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة جـ ١٢ ص ١٠٧، ابن إياس: بدائع الزهور جـ ١ القسم الثاني ص ٥٢٧.

(٢) القلقشندي؛ صبح الأعشى جـ ٤ ص ١٦.

Demombynes: Op. cit. P. XXXIII. Poliak: op cit. p.2.

Demombynes: Op. Cit. P. XXXV III.

(٣)

(٤) ابن الصيرفي: نزهة النفوس جـ ١ ص ٤٩٩.

من اضطراب الأمور في مصر، نتيجة لكثرة منازعات الأمراء على السلطة وانصرافهم عن تدبير شئون الدولة.

### أساليب الحرب:

وقد جرت العادة قبل الإقدام على حرب من الحروب أن يعقد مجلس الجيش برئاسة السلطان برقوق، حيث يضم هذا المجلس كبار العسكريين وعلى رأسهم الأتابك، كما يضم كبار رجال الدين كالحليفة وقضاة المذاهب الأربعة ليكون إعلان الحرب بهذه الصفة أمراً مشروعاً<sup>(١)</sup>.

وكان القرار بإنفاذ حملة كبيرة للحرب يعرف عادة برفع راية السلطان الكبرى المسماة «جاليش»<sup>(٢)</sup> على الطبلخانة<sup>(٣)</sup>، ويقترن ذلك بقرع طبول خاصة بالقلعة، وهي المسماة بالكوسات الحربية<sup>(٤)</sup>.

ثم يعقب ذلك استدعاء الجيش من مختلف الجهات، فيتسلم أفراداه ما يلزمهم من الأسلحة والملابس وغيرها، وبعد ذلك يتم استعراض الجيش بواسطة السلطان وهو مرتد ملابسه العسكرية<sup>(٥)</sup>.

وقبيل تحرك الجيش كانت تنهياً المؤن اللازمة له على طول الطريق، وهذه شملت اللحم والخبز والعليق وغير ذلك<sup>(٦)</sup>.

(١) ابن إياس: بدائع الزهور جـ ١ القسم الثاني ص ٣٨٦.

Demombynes: Op. Cit. P. CIII.

(٢) الجاليش: راية عظيمة في رأسها خصلة من الشعر تحمل في مواكب السلطان، لا سيما المواكب الخاصة بالحرب، سعيد عاشور: العصر المماليكي في مصر والشام ص ٤٠٣.

(٣) ابن الصيرفي: نزهة النفوس جـ ١ ص ٣٧٧.

(٤) المقریزی: السلوك جـ ٣ القسم الثاني ص ٦١١، أبو المحاسن: النجوم الزاهرة جـ ١١ ص ٢٨٠.

(٥) ابن الصيرفي: نزهة النفوس جـ ١ ص ٣٧٩، ٣٨٣.

Demombynes: Op. Cit. P. CIII.

(٦) ابن الصيرفي: نزهة النفوس جـ ١ ص ١٨٨، ٣٧٩.

أما مكان تجمع الجيش فقد درج الماليك منذ العهود الأولى على جعل مدينة الصالحية<sup>(١)</sup> لهذا الغرض، ثم ترك استعمالها بعد منتصف القرن السابع الهجري بقليل.

وربما كان السلطان قُطز في سيره إلى عين جالوت سنة ٦٥٨هـ آخر سلطان جعل مدينة الصالحية مكانا لتجمعات الجيوش المصرية قبل تحركها في مسيرها إلى الشام<sup>(٢)</sup>.

ثم اتجه الماليك منذ نهاية القرن السابع الهجري إلى الريدانية<sup>(٣)</sup> فجعلوها مكانا لتجمعات الجيوش قبل سفرها إلى الشام<sup>(٤)</sup>، وهكذا جعلها السلطان برقوق وابنه فرج مكانا لتجمعات جيوشهم.

وكان الجيش يخرج إلى مكان التجمع جماعات منفصلة، تتقدمها بطبيعة الحال الماليك السلطانية، ثم تعقبها الفرق الأخرى من ممالك الأمراء على أساس أن تكون الفرق الأكثر أهمية في المقدمة، وذلك على حسب مراتب الأمراء في الجيش<sup>(٥)</sup>.

وقد جعل السلطان برقوق ترتيب فرق الجيش على هذا النسق حين كان يخطط سنة ٧٩٦هـ/١٣٩٤م لحمته على تيمور لنك<sup>(٦)</sup>.

(١) الصالحية: بلدة اختطها الملك الصالح نجم الدين أيوب في الجزء الشمالي الشرقي من مصر السفلى (وهي اليوم من قرى محافظة الشرقية) وأنشأ بها قصوراً وجامعا وسوقا لتكون مكان استراحة للحيرش العائدة من الشام بعد عبورها صحراء سيناء، ومكانا لتجمع الجيوش الخارجة من مصر قبل تحركها إلى الشام وذلك في سنة ٦٤٤هـ (المقريزي: الخطط ج١ ص ١٨٤).

(٢) المقريزي: السلوك ج١ القسم الأول ص ٤٢٩.

(٣) كانت الريدانية تطلق على بستان كبير أنشأه ريدان الصقلي أحد خدام العزيز بالله الفاطمي المختصين به، وعلى ما جاوره من الأرض الرملية (المقريزي: الخطط ج٢ ص ١٣٩) ومكان الريدانية اليوم من العباسية حتى مصر الجديدة، انظر أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ج١٢ حاشية ص ٢.

(٤) المقريزي: السلوك ج١ القسم الثالث ص ٨٨٢، ٩٠٨.

(٥) ابن الصيرفي: نزهة النفوس ج١ ص ٣٨٤.

(٦) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ج١٢ ص ٥٣، ابن إياس: بدائع الزهور ج١ القسم الثاني ص ٣٦٧.

وكان يصحب الحملة العسكرية قافلة كبيرة جداً من الجمال تحمل أنقائها وبلغ عددها في استعدادات برقوق لحرب تيمور لك أكثر من أربعة آلاف جمل<sup>(١)</sup>.

وفي الحملة العسكرية التي توجهت إلى الشام سنة ٨٠٤هـ / ١٤١١م، بقيادة السلطان فرج بن برقوق، بلغت عدة الجمال ثلاثة وعشرين ألف جمل<sup>(٢)</sup>. كذلك صحب الجيش المتقدم بقيادة السلطان فرج موكب كبير جداً ضم طوائف من الجنود لقرع الطبول الحربية، كما ضم خزائن السلاح والمال، وحریم السلطان، وحاجيات المطبخ السلطاني، وقوافل من الغنم من أجل المطبخ، وقوافل من البقر والجاموس لحلب ألبانها<sup>(٣)</sup>.

وكان الجيش المتقدم يصحبه في جميع الأحوال مجموعة من الأطباء والجراحين لمداواة الجنود مما قد يحل بهم من أمراض أو جراح في أثناء القتال، هذا فضلاً عن أنواع الأدوية والعقاقير ونحوها، والتي كانت تصرف لمن يعرض له مرض في الطريق<sup>(٤)</sup>.

ويصحب الحملات الحربية في كثير من الأحيان القضاة والخليفة وشيخ الإسلام، وكذلك الوزير وكاتب السر وناظر الخاص وغير هؤلاء. وقد صحب السلطان برقوق معه الخليفة والقضاة وشيخ الإسلام وذلك في حملته على تيمور لك سنة ٧٩٦هـ / ١٣٩٤م<sup>(٥)</sup>.

(١) ابن الصيرفي: نزهة النفوس جـ ١ ص ٣٨٦.

(٢) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة جـ ١٣ ص ١٣٥، ابن إياس: بدائع الزهور جـ ١ القسم الثاني ص ٨١٦.

(٣) أبو المحاسن: نفس المصدر والجزء ص ١٣٤ - ١٣٥.

Demombynes: Op. Cit. P. C III.

(٤) القلقشندی: صبح الأعشى جـ ٤ ص ٤٩.

(٥) ابن حجر: إنباء الغمر جـ ١ ص ٤٧٠.

كذلك صحب السلطان فرج بن برقوق معه الخليفة وقضاة القضاة الأربعة، والوزير وكاتب السر وغيرهم، وذلك في حملته العسكرية على الثائرين بالشام سنة ٨١٤هـ / ١٤١١م<sup>(١)</sup>.

واتبع الجيش المملوكى في حروبه طريقة قتال الصفوف، وهى الطريقة التى وصفها ابن خلدون الذى كان معاصراً للسلطان برقوق والسلطان فرج بقوله: «وبلغنا أن أمم الترك لهذا العهد قتالهم مناظلة بالسهام، وأن تعبئة الحرب عندهم بالمصاف، وأنهم يقسمون بثلاثة صفوف، يضربون صفا وراء صفا، ويترجلون عن جيولهم، ويفرغون سهامهم بين أيديهم، ثم يتناضلون جلوساً، وكل صف زدد الذى أمامه أن يكسبهم العدو، إلى أن يتهياً النصر لإحدى الطائفتين على الأخرى، وهى تعبئة محكمة غريبة»<sup>(٢)</sup>.

وقد رتب الأمير منطاش جيشه في محاربه للسلطان برقوق سنة ٧٩١هـ / ١٣٨٩م على هذه الصورة، القلب والميمنة والميسرة، وأضاف إلى كل ذلك جناحين، كما جعل في مؤخرة الميمنة مجموعة من الجند الاحتياطى، وكذلك فعل بالميسرة، ولم يتمكن برقوق من ترتيب جيشه على هذه الصورة نظراً لقله من كان معه من الجند في هذه المعركة<sup>(٣)</sup>.

وفي المعارك التى دارت بين السلطان فرج بن برقوق وبين الأمير تميم نائب الشام في سنة ٨٠٢هـ / ١٤٠٠م اصطف الجيش السلطانى ميمنة وميسرة، و «قلبا في قلب في قلب» وألحق بكل تشكيل من هذه التشكيلات قوات احتياطية<sup>(٤)</sup>.

(١) ابن الصيرفى: نزهة النفوس جـ ٢ ص ٢٩٣.

(٢) ابن خلدون: المقدمة ص ٢٢٩.

(٣) أبو الحاسن: النجوم الزاهرة جـ ١١ ص ٣٦٧.

(٤) أبو الحاسن: المصدر السابق جـ ١٢ ص ٢٠٦.

وكان من الأنسب للجيش المدافع أن يلتقى بعدوه بعد عبوره صحراء سيناء مباشرة، ذلك أن الجيش المهاجم يكون قد ناله الإعياء والتعب بمجرد عبوره الصحراء، في الوقت الذى يكون فيه الجيش المدافع في راحة من اجتياز الرمال<sup>(١)</sup>. وفي حالات أخرى فضلت قيادة الجيش المملوكى أن تكون المعركة مع الجيش المهاجم فوق الأرض المصرية وفي جوار القاهرة، وقد أبى السلطان برقوق في سنة ٧٩١هـ / ١٣٨٩م أن يلقي الجيوش الزاحفة من الشام بقيادة منطاش بعد أن تعبر الصحراء، وفضل القتال في جوار القاهرة، بعد أن أحكم تحصين قلعة الجبل، وأغلق أبواب القاهرة<sup>(٢)</sup>.

واعتمد الجيش المملوكى في حروبه على الخيل، ولذلك عيى بها السلطان برقوق كل العناية، فأكثر من اقتناء الخيل، وبذل في شرائها المبالغ الطائلة، حتى مات عن سبعة آلاف فرس<sup>(٣)</sup>.

أما عن الأسلحة والآلات التى كان يستعملها الجيش في حروبه في ذلك العهد، فمنها الخوذ والسيوف والرماح والقرقولات<sup>(٤)</sup>.

كما كانت هناك أدوات حربية استعان بها السلطان فرج بن برقوق في حروبه ضد الأمير شيخ بالشام، نخص بالذكر منها المجانيق ومدافع النفط والدبابات ذوات العجل التى تجرها الأبقار<sup>(٥)</sup>.

وجرت العادة عندما تصل أنباء انتصار الجيش إلى القاهرة، أن يقترن ذلك بقرع الطبول في قلعة الجبل، وهو ما عرف في المصطلح المملوكى «بدقة البشائر»

(١) أبو المحاسن: نفس المصدر جـ ١١ ص ٢٥٧.

(٢) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة جـ ١١ ص ٢٧٣ - ٢٧٤.

(٣) المقرئى: المواعظ والاعتبار جـ ٢ ص ٢٥٥، أبو المحاسن: المصدر السابق جـ ١٢ ص ١٠٦، ١٠٨.

(٤) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة جـ ١١ ص ٢٧٣، والقرقل: الدرع تصنع من صفائح الحديد المغشاة بالدجاج الأصفر والأحمر.

القلقشندى: صبح الأعشى جـ ٤ ص ١١.

(٥) أبو المحاسن: المصدر السابق جـ ١٣ ص ١٣٤.

وكانت الطبول تستمر على ذلك بضعة أيام، وفي هذه الحالة تصدر الأوامر للناس بتبييض حوائثهم وإضاءتها بالشموع والقناديل<sup>(١)</sup>.

وفي اليوم المقرر لوصول السلطان على رأس جيشه المظفر يخرج الناس لاستقبال السلطان، وعلى رأسهم الأمراء وكبار رجال الدولة، ثم يشق ركب السلطان القاهرة في موكب ضخم<sup>(٢)</sup>.

أما في حالة عودة الجيش منهزماً فإنه يسود الجنود في عودتهم إلى القاهرة حالة من الفوضى الشاملة.

ففي معركة السلطان فرج مع تيمور لك سنة ٨٠٣هـ / ١٤٠١م، والتي منى فيها الجيش المملوكى بالهزيمة، عاد الجند إلى القاهرة وهم في أسوأ حال من الجوع والعري، وعاد كثير منهم على الأقدام<sup>(٣)</sup>.

### البحرية:

لم تقف مجهودات برقوق الخرية عند اهتمامه بهذا الجيش، بل رأى على أثر اعتلائه سلطنة مصر سنة ٧٨٤هـ / ١٣٨٢م، أنه في حاجة ماسة إلى إنشاء أسطول قوى لدفع خطر القراصنة عن شواطئ دولته، وخاصة الجنوبية الذين دأبوا على الإغارة على شواطئ البلاد في تلك الفترة.

وليس أدل على ذلك من أنه عندما ازدادت تحركات الجنوبية على السواحل المصرية في أوائل حكم برقوق<sup>(٤)</sup>، فإن الأسطول المماليكى استطاع أن يلحق الجنوبية درسا قاسياً، وذلك عندما اشتبك معهم بالقرب من سواحل دمياط سنة ٧٨٧هـ / ١٣٨٥م وانتهت المعركة بهزيمة الجنوبية وأسر بعضهم<sup>(٥)</sup>.

(١) المقرئى: السلوك جـ ٣ القسم الثالث ص ١٠٢٦، ابن إياس: بدائع الزهور جـ ١ القسم الثانى ص ٥٨٤.

(٢) ابن الصيرفى: نزهة النفوس جـ ٢ ص ٥٨.

ابن إياس: بدائع الزهور جـ ١ القسم الثانى ص ٥٨٤ - ٥٨٥.

(٣) ابن إياس: نفس المصدر والجزء ٢ ص ٦١٠.

(٤) ابن الصيرفى: نزهة النفوس جـ ١ ص ٧٥.

(٥) ابن حجر: إنباء الغمر جـ ١ ص ٣٠٢، ابن الصيرفى: نفس المصدر والجزء ص ١١٨.

وهكذا نجح برقوق في العمل على إعادة شأن الأسطول بتدعيم قوته البحرية في البحر المتوسط.

وقد ظل الحال على ذلك حتى تولى فرج بن برقوق عرش مصر فاهتم أيضاً بشأن القوة البحرية، ولا أدل على قوة هذا الأسطول طوال تلك الفترة من أنه تمكن أيضاً في عهد فرج من إنزال الهزيمة بمن يلجأ للإغارة على شواطئ البلاد، وذلك عندما أعد حاكم جنوا أسطولاً كبيراً سنة ٨٠٦هـ / ١٤٠٣م ليهاجم به الإسكندرية، غير أن حملته باءت بالفشل بسبب الاستعدادات التي اتخذها السلطان فرج<sup>(١)</sup>.

ولم تقف اهتماماً برقوق في حمايته للشواطئ عند هذا الحد، بل عمد إلى تحصين الثغور تدعيماً لقوته البحرية، فاهتم منذ الفترة الأولى من سلطته بعمارة برجى دمياط<sup>(٢)</sup>، كما «جدد خزائن السلاح بثغر الإسكندرية بعد خرابها»<sup>(٣)</sup> وشحنها بالمقاتلين الذين دربوا على طريقة الدفاع عن الثغور، وبخاصة «رماة قسيّ الرجل» ممن يستخدمون أقدامهم في الرمي بالقوس<sup>(٤)</sup>، والذين تبدوا أهميتهم بصفة خاصة في أوقات الاشتباكات البحرية.

ومن أشهر السفن الحربية التي كانت تستعمل في عهد السلطان برقوق وابنه فرج، الشوانى والأغربة والحراريق والطرائد.

أما الشوانى والأغربة فقد استعملها الأسطول المماليكى في عهد برقوق حين هاجم السفن الجنوية في مياه البحر المتوسط سنة ٧٨٧هـ / ١٣٨٥م<sup>(٥)</sup>.

وتعتبر الشوانى من أهم القطع التي كان يتألف منها الأسطول، وأعظمها شأنًا، وهى مراكب حربية كبيرة أقيمت فيها أبراج وقلاع للدفاع والمهجوم،

Doppe: Op. Cit. P.P. 89 – 90.

(١)

(٢) ابن حجر: إنباء الغمر جـ ١ ص ٢٨٩.

(٣) ابن الصيرفى: نزهة النفوس جـ ١ ص ٢١٢.

(٤) المقرئى: السلوك جـ ٣ القسم الثانى ص ٦١٢، ابن الصيرفى: نفس المصدر والجزء ص ٧٠.

(٥) ابن إياس: بدائع الزهور جـ ١ القسم الثانى ص ٣٦٦، ٣٧١.

وكانت هذه الأبراج مكونة من عدة طبقات، تقف في الطبقة العليا منها العساكر المسلحة بالأقواس والسهام والحراب، وفي الطبقة السفلى الملاحون بالمجاديف<sup>(١)</sup>.

أما الأغرية فهي كذلك نوع من السفن الحربية تركب فيه المقاتلة والجداون<sup>(٢)</sup> وهي من المراكب الشديدة البأس، وقد سميت بهذا الاسم لأن مقدمة هيكلها كان على شكل رأس الغراب<sup>(٣)</sup>.

كذلك الحراريق على عهد السلطان فرج بن برقوق، فقد أوردتها المقرئ في حوادث سنة ٨٠٤ عند حديثه عن أحد الأمراء المنفيين بأنه «قيد وحمل في الحراقة إلى الإسكندرية»<sup>(٤)</sup>.

والحراريق أقل حجما من الشوانق، وهي بمثابة ناقلات الجند والذخيرة، فكان يحمل فيها المشاة فضلا عن الذخيرة والبارود والنفط، أما الطرائد، فهي السفن الخاصة بحمل الخيول، وكانت تتسع لنحو أربعين فرسا، وأحيانا لثمانين فرسا<sup>(٥)</sup>.

ومن هنا نتبين مقدار ما وصلت إليه مصر في تلك الفترة من تدعيم بحريتها، حتى ظهرت بالمظهر اللائق بما بين الدول البحرية، وخشى بأسها الأمم المجاورة لها، ولا سيما الجنوبية الذين بعثوا رسلهم بالهدايا يطلبون صلحها.

(١) سرور: دولة بني قلاوون ص ٣١٥.

(٢) ابن مماتي: قوانين الدواوين ص ٣٣٩ - ٣٤٠.

(٣) عبد المنعم ماجد: سلاطين المماليك في مصر ج ١ ص ١٩٢.

(٤) المقرئ: السلوك ج ٣ القسم الثالث ص ١٠٨٥.

(٥) سعيد عاشور: العصر المماليكي ص ٢٨٠.